ر. د.م.د: ISSN 2437-0819-رقم الإيداع القانوني:2014-6068

النظرية التأويلية و تطبيقاتها في مشروع سعيد بنكراد

Theory of interpretation and its applications in Said Bengrad project

غالم عبد الصمد (طالب دكتوراه)
جامعة سيدي بلعباس (الجزائر)
Pr.abdessamed@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2018/10/22 **تاريخ القبول:2019/01/01**

الملخص:

تبتغي هذه الدراسة العلمية معالجة جملة من القضايا المرتبطة بسؤال التأويل في الخطاب النقدي المغاربي المعاصر على مستوى التنظير و الممارسة ، و اخترنا في هذا العمل الناقد المغربي سعيد بنكراد أنموذجا ، و لتتبع مشروعه اعتمدنا على انتقاء أهم مؤلفاته و مقالاته التي ارتبطت بموضوع التأويل ، و لم نتوقف عند رصد المفاهيم و المصطلحات التأويلية فقط ، بل امتدّ البحث ليشمل الوقوف على تطبيقاتها ، و ركزنا في ذلك على الخطاب السردي و الصورة الإشهارية ، و حاولنا أيضا الوقوف على تأثر سعيد بنكراد في هذه الأعمال بالمنهج السميائي .

الكلمات المفتاحية : التأويل ؛ الخطاب ؛ السميائيات ؛ استراتيجية

Abstrat:

This scientific study aims to deal with a certain number of questions related to the question of interpretation in contemporary Maghreb critical discourse on the level of theory and practice .

In this work we selected the Moroccan critic Said Bengrad as a model . to follow his project we relied on the selection of his most important works and essays related to the subject of interpretation .

We did not stoped at the observation of concepts and terminology , but extended the research to include standing on their applications .

Keywords : interpretation ; discourse ; semiology ; strategy .

مقدمة:

إن اهتمام الدارسين بالتأويل ليسا ترفا فكريا و ركضا وراء فائض المعنى، بل استجابة لتحديات العصر وأسئلته الراهنة في ظل صلابة المنهج البنيوي ، فالمقاربة التأويلية هي استعادة للمعاني الخفية و استجابة إنسانية لسؤال المعنى ، و قيمة التأويل تتجلى من خلال اعتباره بحثا في الجوهر الحقيقي للإنسان .

لم يكن النقد العربي المعاصر بمنأى عن هذه التحولات المنهجية ، بل ظهر التأثر بهذا المنحى الجديد عند مجموعة من النقاد ، و يعتبر سعيد بنكراد من أهم أعلام التأويل و السميائيات في الوطن العربي الذين انفتحوا على الدرس السميائي في تأسيسه للفعل التأويلي ، انطلاقا من أن النص كائن حي يتطلب التأويل .

1-استراتيجيات التأويل

إن التأويل نشاط ملازم للنصوص و الخطابات الإنسانية ، و لذلك لا يمكن اعتباره دخيلا على الممارسة الفنية ، بل هو ضرورة يمليها الوجود الإنساني نفسه . فهناك قوة داخل الإنسان " تدفعه إلى البحث عن جذور الحياة و عمقها و امتداداتها في أصول غابت عنا و لم نعد نعرف عنها أي شيء إلا ما يمكن أن تقوله نصوص مغرقة في رمزيتها ، رغم ما يوحي به وجهها الحدثي المشخص. " [1]

أشار سعيد بنكراد بأن الهرموسية اعتبرت التأويل محاولة لاستعادة ذاكرة الأمة ، و لذلك ارتبطت بالنصوص الدينية و النصوص الإبداعية المختلفة ، و امتاز الفعل التأويلي عند أنصارها بأنه لا يدمر النص " بل يقوم بإعادة بنائه ، فهو محكوم بغايات الحقيقة كما عبر عن ذلك شلايرماخر (1768- 1834) ، و هو أحد أبرز الذين أرسوا الأسس الأولى لهرموسية أصيلة تؤمن بقدرة اللغة على استعادة ما قام التباعد الزمني بطمسه . " [2]

و في تناقض تام مع هذا التصور حاول غادامير بلورة رؤيته الخاصة للتأويل من خلال اختصار آليات التأويل في ثلاث دوائر: الدائرة الجمالية ، الدائرة التاريخية ، الدائرة اللغوية

" و تعدّ هذه الأخيرة دائرة التأويل بامتياز، فاللغة هي الوسط الذي تجري فيه عملية الفهم و الإفهام "[3]

و يؤكد بنكراد من جهة أخرى أن ريكور تجاوز محدودية التحليل البنيوي ، منطلقا من كون المعنى " ليس في العلاقات ، بل في ما يمكن أن تقود إليه هذه العلاقات " [4]

و لم يخف بنكراد تأثره بالتصور السميائي للتأويل الذي يعدّ التدليل مثبت في مؤول نهائي يرسو بالمعنى في نقطة معينة ، فالشرط الثقافي التاريخي هو من يحدّ غلواء التأويل .

2-السميائيات و التأويل عند سعيد بنكراد

ارتبط سؤال التأويل في مشروع سعيد بنكراد بالمنهج السميائي ولذلك كان له اهتماما خاصا بالسيميائيات التأويلية التي أولت التأويل أهمية قصوى ، انطلاقا من أن المعنى في الخطاب يكون متواريا مستعصيا على الضبط ، و كلما كان متخفيا كانت رحلة الإمساك بالدلالة ممتعة .و يعتبر السؤال في هذه الرحلة البحثية محور السيرورة التأويلية ، ذلك لأن كل سؤال هو استعادة لوضعية و تجاوز لها في الوقت ذاته ، إنها تساؤل عن فحوى ظاهرة و اقتراح جديد لمضمونها .

إن التأويل ضرورة إنسانية ،و مادام العالم الذي يعيشه الإنسان لا يخرج عن دائرة العلامات ، فإنه لا يمكن إدراك الموجودات في الواقع إلّا بفهم ما ترسمه هذه العلامات من سيرورات دلالية ، ولا يخلو التأويل من غايات ، فنحن" نؤول وفق متطلبات حاجاتنا بجميع أنواعها "[5]

يربط بنكراد بين التأويل و عالم العلامات الذي نسكنه ، فلا يمكن البحث عن المعاني خارج العلامات " و لا يمكن أن نفكر دون علامات ، فالمعنى موجود في العلامات ، و العلامات وحدها هي السبيل إلى إنتاج الدلالات و تداولها " [6]

اهتم بنكراد بنظرية بورس السميائية لأنها تقدم إسهاما فعليا في تأويل النصوص ، وأهم ما دعت إليه هذه النظرية هو الحد من غلواء التأويل و ضرورة ربطه بالحاجات النفعية ، و ذلك بتفعيل الانتقاءات السياقية في قراءة النصوص ، فلا جدال في أن "

السميوز لا متناهية بحكم طبيعة الفكر الإنساني ذاته و بحكم تعدد حاجات الإنسان و تنوعها ، لكنها نهائية في كل واقعة خطابية مخصوصة . والواقعة الخطابية تستدعي ، كضرورة لإنتاج الدلالات ، محفلا للتلقي، وهذا المحفل يستند في قراءاته إلى أسئلة مسبقة توجه القراءة"[7]

فالتأويل إذن انتقاء لمسار محدد من القراءة وفق ضوابط توجه المؤول نحو غايات دلالية خاصة.

ينطلق بنكراد من نظرية بورس في تمييزه بين المؤول المباشر الذي لا يتجاوز معطيات الموضوع المباشر و المؤول الدينامكي الذي يستحضر المعارف التي تحيط بالعلامة لوضع العلامة ضمن سيرورة لا متناهية ، و المؤول النهائي الذي يثبت هذه السيرورة اللامتناهية عند نقطة معينة استنادا على غايات تداولية ، و يمكن أن نرجع ذلك إلى " محاولة الذات لخلق محميات دلالية تريحها من عبء المتسيب و اللامحدود و اللاقار من خلال الرسو على موقف دلالي بعينه " [8]

و رغم أن المشروع السميائي لبورس يقوم على فكرة أن العلامات تستدعي سلسلة من الإحالات اللامتناهية ، إلاّ أن ذلك لا يعني رفض إرساء المعنى على قيمة دلالية و الدعوة إلى تفكيكية متحررة من قيود الختام ، فبورس نفسه على حد قول بنكراد لم يكن يتصور أن تتحول فكرته حول الإحالات إلى عقيدة تؤمن بالتأويل المطلق ، ذلك أنه هو نفسه " كان يتحدث ، و هو يبرهن عن لانهائيات العلامات ، عن إمكانية وضع حد لهذه السيرورة من خلال الإشارة إلى فعل تداولي ينتجه السياق و تقبل به الذات المؤولة (ما يسميه بالمؤول النهائي) "[9]

إن التأويل إذن ليس فعلا مطلقا " بل هو رسم لخارطة تتحكم فيها الفرضيات الخاصة بالقراءة ، و هي فرضيات تسقط ، انطلاقا من معطيات النص ، مسيرات تأويلية تطمئن إليها الذات المتلقية ."[10] و ذلك حتى لا يدخل التأويل متاهات لا تحكمها أي غاية .

3-التأويل في الخطاب السردي

حاول سعيد بنكراد إعمال الفعل التأويلي في مختلف المحكيات الإنسانية ، فالخطاب السردي هو خطاب منتج للقيم و قائم في جوهره على نظام من العلامات التي تنفتح على دلالات متنوعة ، و عليه فهي تغري القارئ بإعادة إنتاجها و فهم دلالتها .

إن السرد ليس مجرد اختيار شكلي اهتدت إليه التجربة الإنسانية لتعطي القيم مضمونا زمنيا فحسب " بل يمثل أحد أهم ما يعرف به الإنسان بوصفه كائنا رمزيا منفردا بالثقافة . فالسرد هو الذي استطاع أن يكون المعبر الأقوى و الأمثل عن هذه السيرورة الزمنية – الترميزية التي جعلت الإنسان يفجر طاقاته التدليلية "[11]

حاول بنكراد من خلال كتاب " مسالك المعنى دراسة في أنساق الثقافة العربية أن يدعو القارئ لمساءلة البديهي و كل ما يبدو عاديا و مألوفا ليكشف عن الدلالات الرمزية التي تتستر وراء الظاهر . إن هذه الوقائع ليست محدودة بأحادية القراءة ، و لكنها ككل الوقائع متعددة " إنها سلسلة من السياقات التي يمكن استثارة بعضها استنادا إلى فرضيات للقراءة ، و استبعاد أخرى إلى أجل مسمى تمليه ظروف أخرى للتلقي . ذلك أن كل فرضية ليست سوى محاولة لتجسيد حالة دلالية " [12]

و يظهر اهتمام بنكراد بالسرد من خلال تأسيسه لذلك التواشج بين التاريخي و التخييلي ، فمن خلال السرد نعيد امتلاك الحياة من جديد ، و عادة يتأثر المتلقي بالحكايات أكثر من وقائع التاريخ الصامة ، و لذلك فالعالم موحش بدون شخصيات تخييلية " ففيها وحدها دفء الوجود و حرارة الفعل الإنساني معا فلو أفرغنا الذاكرة من كل الشخصيات التي جاءتنا من المسرودات التخييلية لتضاءلت تجاربنا في الحياة إن هذه الشخصيات هي الجسر الضروري نحو قول شيء ما عما يتحقق في العيان العيني . "[13]

يستند التأويل في السرد عند سعيد بنكراد على العوالم الممكنة ، و ذلك بالتركيز على الإسقاطات الاستعارية للقصص و الحكايات ، فمثلا النار التي ألقي فيها إبراهيم ، يمكن أن تفهم في بعدها الاستعاري ، و على هذا الأساس ، فإن " الافتراض التأويلي لا ينطلق من

حقيقة الحريق ، و إن فعل ذلك ، فإنه لن يقدم تأويلا ، بل سيكتفي بتفصيل القول في ما يمكن أن يبرهن على عظمة الله القادر على المعجزات " [14]

فالنار إذن تحيل إلى التمزق الداخلي الذي ينتاب الإنسان الباحث عن الحقيقة السماوية في ظروف ترفض التحول الجديد .

و من المحكيات التي استهوت سعيد بنكراد : ما كان يسرده الداعية عمرو خالد على جمهوره في مجالس الوعظ و الإرشاد ، فما تقدمه هذه الجلسات " ليس وعظا حافيا يعتمد الخطاب التقريري و المباشر في بلورة رسالته ، بل هو أسلوب قصصي أداته المثلى في النصح و التنبيه و التوجيه و التحذير هي سرد حكايات تعيد صياغة حياة ماضية تقود حتما إلى بلورة قواعد للفعل "[15] فما يرويه هذا الداعية من قصص ذو غاية مَثَلية ، و هذا ما يميز استراتيجيته الدعوية التي تسعى إلى إقناع المتلقي بتوظيف السرد ، و لا يتم ذلك إلا بالاشتغال على المحتمل من أجل استثارة الإنفعال ، وهكذا يتم " إعادة صياغة المشهد الموصوف من قبل السارد الأول وفق غايات جديدة هي تأويل و قراءة فيما تقوله الملامح المتخيلة ، لا ما ترويه الوقائع . "[16]

إن السرد وفق هذه القراءة يسعى للتخلص من البعد الزمني ، و منحه بعدا رمزيا يساهم في تشكيل الهوية

4-التأويل و الإشهار

تتميز الصورة الإشهارية بتداخل البعد البصري و البعد اللساني ، و هي في كل ذلك تتضمن أنماط سلوكية معينة تكرس ممارسات ثقافية محددة ، و لذلك فالهوية في المنطق الإشهاري لا تركز على خصوصية المنتج و تميزه فقط ، بل " تطمح إلى إدراج هذا المنتوج ضمن عالم ثقافي يؤكد مجموعة من القيم التي يزعم المنتوج الانتماء إليها أو الدفاع عنه"[17]

سعى بنكراد لتجاوز ما تقترحه الصورة في أبعادها المباشرة ، ففي الوصلات الإشهارية هناك حوارا ثانيا يتجاوز الإرسالية اللغوية ، حوار يحدث من خلال الإيماءات " منتجا

ملفوظاته الخاصة التي تشكل في تآلفها نصا جديدا يتجاوز النص الظاهر. فإذا ما نحن وقفنا عند سيل الصور و تتابعها الخطي أدركنا ذلك بسهولة " [18]

يفرق بنكراد في الاستراتيجية الإشهارية بين القيم الاستعمالية و القيم الأساسية فإذا كان الاستعمالي مرتبط بالحاجات النفعية ، فإن " الأساسي فعلى النقيض من ذلك مرتبط بالهوية الفردية ، أي ما يعود إلى الوجود الفردي " [19]

حاول بنكراد ربط الهوية البصرية التي يبنى عليها الإشهار بالنسق الثقافي الذي تحيل إليه ، و لا يمكن تأسيس هذا الربط إلا عبر النشاط التأويلي الذي يهتم بالكشف عن الموضوعات الثقافية المميزة للممارسات الإنسانية .

تعتمد الوصلات الإشهارية على استراتيجية خطابية قائمة على ازدواجية في التأويل : " تنفتح الصورة على سجلات دلالية بالغة الغنى و التنوع ، في حين تقوم الملفوظات اللسانية بعملية ضبط ذاتي للتوالد الدلالي الذي يقلص من حجم السجلات و يوجهها وفق غاية خاصة " [20]فالصورة تنفتح على السجلات الرمزية الرحبة ، و الملفوظات المرافقة لها تقيد هذا الإطلاق و توجه الإشهار نحو غاية محددة .

و يمكن التمثيل على ذلك بالصورة التالية التي نقلها سعيد بنكراد :

فالقمر في الصورة السابقة يرتبط بالمخيال الكوني الإنساني لكن الإرسالية اللسانية المرافقة هي التي تحدد سيرورة التأويل .

و لم يهمل سعيد بنكراد الفضاء الذي يؤطر الخطاب الإشهاري ، و أكد أن هذا الفضاء لا يسعى لخلق احتمال واقعي ، بل " يروم غاية أخرى هي تحويل الفضاء المنتقى إلى قوة للاستهام الانفعالي الذي يقذف بالذات المستهلكة إلى عوالم سحرية تعود بها إلى صور نسيها عقلها و لكنها استمرت في وجدانها على شكل رغبات مبهمة نادرا ما تتبين كهنها أو تنتبه إلى مضامينها الحقيقية . "[21]

و لم يهمل سعيد بنكراد حضور المرأة في الإشهار، و اعتبر أنه في الغالب من الحالات تستثير شهوة الحس في المشاهد انطلاقا من طاقة الإغراء التي يملكها الجسد ، و ذاك ما يكشف عنه الطابع الإيروسي لبعض الوصلات : " تتخلى اللغة فيها عن معناها التقريري ، لكي تنحاز إلى الإيحائي وحده و يتخلى البصري عن مضمونه الواقعي لكي يمجد عريا مثاليا لا معادل له في الواقع " [22]

خاتمة

توصلنا من خلال هذا البحث إلى مجموعة من النتائج ، من أهمها :

- امتاز العمل النقدي لسعيد بنكراد بالطرح العلمي و الثراء و التنويع بين التنظير و الممارسة في مجال السميائيات و التأويل .

- اعتمد مشروعه على مساءلة العلامات باعتبارها الأداة التي ينظم بها الإنسان تجاربه التي لا أفق لها خارج اللغة .

- انفتح بنكراد على المنجز الغربي في مجال التأويل خاصة الأفكار الهامة التي طرحها غادامير وبورس و كريماس و بول ريكور و إيكو .

– إن التدليل في النصوص لا يمكن أن يتم في انفصال عن سيرورتها الثقافية التي يتشكل داخلها المعنى ، فالنسق الثقافي المضمر في الخطاب هو من يحدد المسارات التأويلية ، و لذلك لا يمكن اعتبار الفعل التأويلي ممارسة حرة .

– ليس المهم في النشاط التأويلي النص نفسه ، بل السياقات التي تحتوي النصّ ذاته ، فتحديد المعنى مرتبط بالإكراهات الإبلاغية و الانتقاءات السياقية .

– القصص القرآني يمكن قراءته وفق تضمنه استثارة مضامين استعارية تحاكي التجارب الإنسانية.

الهوامش:

[1]– سعيد بنكراد ، استراتيجيات التأويل ، كلية الآداب و العلوم الإنسانية ، الرباط ، ط1 ، 2011 ، ص 06

[2]-سعيد بنكراد ، استراتيجيات التأويل ، ص 10

[3]-لزهر فارس، التأويلية عند غادامير، مجلة فتوحات ، العدد الثاني ، جوان 2015، ص 195

[4]-سعيد بنكراد ، استراتيجيات التأويل ، ص 28

[5]-سعيد بنكراد ، السميائيات و التأويل ، المركز الثقافي العربي ، المغرب ، ص 31

[6]-سعيد بنكؤاد ، السميائيات و التأويل ، ص 30

[7]-سعيد بنكراد ، السميائيات و التأويل ، ص 38-39

[8]-بنكراد ، السميائيات و التأويل ، ص 153

[9]-سعيد بنكراد ، السميائيات و التأويل ، ص 130

[10]- أمبرتو إيكو ، التأويل بين السميائية و التفكيكية ، ترجمة : سعيد بنكراد ، المركز الثقافي العربي ، ط2 ، 2004، ص 11

[11]-محمد عفط ، مسالك المعنى أو حذق الوعي النقدي ، مجلة علامات ، العدد 37 ، 2012 ، ص 77

[12]-سعيد بنكراد ، مسالك المعنى دراسات في الأنساق الثقافية ، منشورات الزمن ، 2015 ، ص 06

[13]-سعيد بنكراد ، شخصيات الرواية و أشباح التاريخ، مجلة علامات ، العدد 43 ، 2015 ، ص 86

[14]-سعيد بنكراد ، تعددية الحقائق و فرجة الممكن ، مجلة علامات ، العدد 41 ، 2004 ، ص 82

[15]-سعيد بنكراد ، مسالك المعنى ، ص 8

[16]-سعيد بنكراد ، مسالك المعنى ، ص 11

[17]- سعيد بنكراد ، و النجم إذا علا إستراتيجية التواصل و بناء الهوية ، مجلة علامات ، العدد 18 ، 2002، ص 48

[18]-سعيد بنكراد ، و النجم إذا علا إستراتيجية التواصل و بناء الهوية ، ص 57

[19]-سعيد بنكراد ، و النجم إذا علا إستراتيجية التواصل و بناء الهوية ، ص 61

[20]-سعيد بنكراد ، هناك بعيدا في الأعالي ، مجلة علامات ، العدد 27 ، 2007 ، ص 30

[21]-سعيد بنكراد ، هناك بعيدا في الأعالي، ص 22

[22]-سعيد بنكراد ، المرأة في الإشهار بين المعيش اليومي و استيهامات الرغبة ، مجلة علامات ، العدد 48 ، 2017 ، ص 26

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊